CHAPTER 10 / BÖLÜM 10

جهود الأطباء المسلمين في مقاومة الوباء في العهد المملوكي خلال القرن الثامن الهجري

MUSLIM PHYSICIANS' ENDEAVOURS UPON PLAGUE IN THE 8TH/14TH CENTURY MAMLUK PERIOD

Béchir ABDELLAOUI[1]

[1]Zitouna University, Center for Islamic Studies, Tunus
E-mail: bechir.abdellaoui@hotmail.fr

DOI: 10.26650/B/AA07AA25.2024.033.010

ملخص

شهد العصر المملوكي، خاصة في القرن الثامن الهجري، موجات عميقة من الأوبئة، وبشكل ملحوظ تفشي وباء مدمر سنة (ت. 1348م/749هـ). وقد ردَّ الأطباء المسلمون بردود متنوّعة على هذا التحدّي. نذكر من هؤلاء الأطباء البارزين الشقوري (ت. 1348م/749هـ)، وابن خاتمة (ت. 1369م/770هـ)، ولسان الدين بن الخطيب (ت. 1374م/776هـ)، الذين قدموا وجهات نظرهم حول الوباء، تاركين إرثًا علميًّا مهما. كانت جهود الأطباء المسلمين في مواجهة الأوبئة رائدة وممهدة لتطور الطب الحديث، ومع ذلك لم يكن طريقهم خاليًا من التحديات: الوباء المستمر من جهة، والتشكيك من بعض طوائف المجتمع الإسلامي من جهة أخرى. يركز هذا العمل على ثلاثة جوانب رئيسية: ظاهرة الأوبئة في القرن الثامن الهجري، وجهود الأطباء المسلمين، والتحديات التي واجهوها.

كلمات مفتاحية: الأطباء المسلمون، الأوبئة، القرن الثامن الهجري، الممالیك، المقاربة الطبية، المقاربة الفقهية

Abstract

In the Mamluk era, particularly in the 8th century AH, pandemics were prevalent. The overwhelming outbreak of plague in 749 AH was notable. Muslims responded to this plague diversely, based on their scientific specializations. This challenging epidemic prompted varied views among Muslim physicians. Notable figures including al-Shaqquri (d. 749/1348), Ibn Khatimah (d. 770/1369), and Lisan al-Din bin al-Khatib (d. 776/1374) presented their unique perspectives on the plauge. Muslim physicians' efforts against the epidemic served as a precursor to modern medicine, despite facing challenges. These challenges arose from the persistent disease and skepticism within certain Islamic sects. This paper will focus on the examination of epidemic phenomenon in the 8th-century and clarify Muslim physicians' efforts, resistance, and challenges during the process.

Keywords: Muslim Physicians, Pandemics, Mamluks, Medical Approach, Juristic Approach

المقدّمة

لئن كان الوباء ظاهرة ملازمة للوجود البشري خلال كل مراحل التاريخ، فإن العهد المملوكي 1250م/649هـ-1517م/923هـ ولاسيما القرن الثامن الهجري منه عرف موجات وبائية ساحقة حتى أن سنة 1350م/749هـ ظهر فيها وباء جارف عم المعمورة، فتفاعل المسلمون مع هذا التحدي بطرق مختلفة حسب اختصاصاتهم العلمية، ونظرا لقوة التحدي الذي خلّفه هذا الوباء وغيره تعدّدت الأنظار في كيفية التعامل معه، مما جعله إشكالا حقيقيا على مر الزمان.

وعرفت بحوث الأطباء المسلمين في مواجهة الوباء تطورا لافتا مما جعلها أساسا للطب الحديث، غير أنّ ردود أفعال المجتمع الإسلامي كانت متفاوتة في التفاعل مع جهود الأطباء بسبب اختلاف تصورهم للأوبئة أسبابا وعلاجا وانتقالا، مما جعل تلك الجهود تصطدم بتحديات جمة عقّدت مهمتهم.

وسنعتمد في إنجاز هذا العمل التمشّي التالي: **أوّلا** ظاهرة الوباء في القرن الثامن الهجري، **وثانيا** جهود الأطباء المسلمين لمقاومته، **وثالثا** التحديات التي واجهتهم.

1. ظاهرة الوباء في القرن الثامن الهجري

1.1. ظهور الأوبئة: لـمّا كان الكلام على الأمراض مرتبطا بالإنسان، فإن وجودها من وجوده. ولذلك فإنّه لا يخلو زمان من الحديث عن الأمراض المختلفة ومنها الوبائية. وقد تعرّضت الكتب التي صنّفها الفقهاء والأطباء المسلمون إلى هذه الأمراض، فتكلموا عنها وحاولوا تشخيصها ووصف طرق علاجها حسب ما سمحت به ظروف زمانهم.

ويفيد التأمل في المدونة الحديثية وجود أخبار تشير إلى قدم الأوبئة وابتلاء الإنسان بها منذ زمن بعيد. فورد في الخبر «إِنَّ هَذَا الْوَجَعَ رِجْزٌ أَوْ عَذَابٌ أَوْ بَقِيَّةُ عَذَابٍ عُذِّبَ بِهِ أُنَاسٌ مِنْ قَبْلِكُمْ، فَإِذَا كَانَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا، فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا وَإِذَا بَلَغَكُمْ أَنَّهُ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا»[1].

1.2. نماذج من الأوبئة: يمكن عرض نماذج من الأوبئة التي سجلها المؤرخون في العهد المملوكي مقتصرين على ما ورد منها في القرن الثامن الهجري[2]. ونلاحظ أنّهم يسمونها طاعونا بناء على عدم قدرتهم على التمييز بين أنواع الأوبئة حيث كانوا يعتبرون كل مرض عام ومنتشر طاعونا، ولكننا سنسوقها باعتبارها أوبئة لأننا لا نستطيع -ولا هم أيضا- التحقّق من أنها طاعون.

أ- كان أشد الأوبئة ما حدث في القرن الثامن الهجري أي في العهد المملوكي، حيث عمّ هذا الوباء العظيم المسكونة شرقا وغربا[3]، وذلك سنة 1350م/749هـ-750-هـ، وسموه بالجارف وسماه ابن الخطيب[4] الوافد وسماه الهائل بسبب قوته

---

1 مسلم، الجامع الصحيح، بيروت: دار المعرفة. "السلام"، 32 عدد (2218).

2 ذكر ابن خاتمة وابن حجر نماذج كثيرة من الأوبئة، تراجع في: ابن خاتمة (1369-1333)، تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد، حقّق محمد حسن هذه الرسالة ضمن كتاب "ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف" صدر عن "المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة) الطبعة الأولى م2013. ص. 219 وما يليها.

3 ابن عساكر (ت. 571هـ)، تاريخ دمشق، تحقيق عمرو العمروي، بيروت: دار الفكر، 1416هـ/1996م. ج. 58 ص. 336.

4 هو أبو عبد الله محمد بن سعيد بن عبد الله الشهير بالوزير لسان الدين بن الخطيب السلماني الغرناطي الأندلسي المعروف بذي الوزارتين. برع في الطب وله فيه مؤلفات منها «مقنعة السائل عن المرض الهائل» تحدث فيه عن وباء 749هـ الذي انتشر في العالم ومنه الأندلس. و»مقالة حول الجنين عند التكوين». اُتُّهِمَ ابن الخطيب بالزندقة فسجن، وخنقه بعض الأوباش في سجنه سنة776 هـ. وقد خصّص المقري التلمساني شهاب الدين أحمد بن محمد (ت. 1041هـ)، كتابا للتعريف به وهو: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار صادر. 1997م، ج. 5 ص. 7 وما يليها. وأنصفه ابن خلدون عندما اعتبره شهيدا فقال »الهالك لهذا العهد شهيدًا بسعاية أعدائه «(ابن خلدون، المقدمة، تحقيق محمد محمد تامر. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية. الطبعة الأولى 1426هـ/2005م. ص. 500)

التدميرية. وكان منشؤه في الصين[5]. ثم انتقل مع خطوط التجارة في البحر والبر. وقال ابن الوردي (ت. 749هـ) عن هذا الوباء الذي قضى فيه نحبه "ثم دخل معرّة النعمان فقال لها: أنت مني في أمان، حماة تكفيك، فلا حاجة لي فيك: **[البسيط]**

رأى المعرّة عينا زانها حور ** لكن حاجبها بالجور مقرون

ما الذي يصنع الطاعونُ في بلد ** في كل يوم له بالظلم طاعون"[6].

ب- وقع الوباء سنة 759هـ بالحجاز، وتوفّى به بعض العلماء رغم شدة تحفظهم من الوباء[7].

ج- طاعون القاهرة ودمشق سنة 764هـ.

د- طاعون بدمشق سنة 771هـ.

هـ- طاعون بمصر سنة 781هـ.

و- طاعون بمصر أيضا سنة 791هـ.

وتواصل ظهور الأوبئة بنفس الوتيرة في القرون اللاحقة، دون انقطاع، وغالبا ما تَفِدُ إما من المشرق، أو من الشمال أي من الدول الأوروبية.

1.3. مصنفات في الأوبئة: لاحظنا أن التصنيف في موضوع الأوبئة ينشط مع وقوعها، ويحدث ذلك إما بشعور العلماء بمسؤوليتهم في الكتابة للناس حتى يساعدوهم على تجاوز المحنة، أو جوابا على سؤال يُوَجَّه إليهم فيستجيبون لداعي الواجب ويكتبون ما يرونه مفيدا، جامعين بين التأصيل والتوظيف، تأصيل المعارف الشرعية والطبية، وبيان كيفية التعامل مع الوباء للتخفيف من نتائجه السلبية. وكثيرا ما يصرّح المصنّفون في هذا الموضوع في مقدّمات كتبهم بتلك الأسئلة وبهذه الأغراض

ويمكن أن نعرض بعض تلك المصنفات على سبيل الذكر لا الحصر:

«**كتاب السر المصون في أخبار الطاعون**»، لعبد الله بن أحمد المقدسي الحنبلي (ت. 620 هـ) بأمر من أمير مصري[8].

مقالة في «**إذا نزل الوباء بأرض قوم**»، لأبي عبد الله محمد بن يوسف بن عمر بن عمران المزدغي الفاسي (ت. 655هـ).

"**النبا عن الوبا**، لزين الدين بن الوردي (ت. 749هـ)، وهو من الأدباء العظام في العصر المملوكيّ الأول، كتبها بسبب الوباء الذي انتشر في كل أنحاء العالم بدءا من عام 742هـ واستمر حتى عام 749هـ. وقد أشاد مؤرخو العصر المملوكي ونقاده بهذه الرسالة، التي تكمن أهميتها في كونها وثيقة تاريخية كتبها أديب عايش الوباء، واكتوى بناره، فرسم صورة للمدينة الإسلامية المنكوبة في ذلك العصر.

---

5 ابن الخطيب لسان الدين (ت. 776هـ/1374م)، مقنعة السائل عن المرض الهائل. تحقيق حياة قارة. الرباط: دار الأمان. الطبعة الأولى 1436هـ/2015م. ص. 75، 76.

6 ابن الوردي عمر بن مظفر (ت. 749هـ)، تاريخ ابن الوردي، النجف: المطبعة الحيدرية. الطبعة الثانية1389 هـ/1969م. ج. 2 ص. 502.

7 بن تغري بردي الحنفي (ت.874 هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر: دار الكتب. ج. 14 ص. 143، 144.

8 محمد بن سليمان المناعي، من أولاد مناع من دريد. تعلم بتونس الحاضرة عن إبراهيم الرياحي وإسماعيل التميمي وصالح الكواش وغيرهم. التقى في فاس أحمد بن سالم التيجاني صاحب الطريقة وكان يتردد عليه في البداية طمعا في الأكل، ثم اقتنع بطريقته. عاد إلى الحاضرة، واشتغل في خطة الشهادة والتوثيق. وقدّمه حسين باي للكتابة عنه ورافقه في المحلات. وهو الذي طلب منه الكتابة في موضوع الوباء فوضع الرسالة التي تؤيد مذهب الباي في عدم التحفظ من الوباء. ونبذ كل الاحتياطات التي يحث عليها الأطباء. توفي سنة 1831-1832م/1246هـ (ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان، تحقيق عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي. القاهرة: دار المعارف، 165/7، 166).

«**نصيحة للمسلمين في الوباء**"، لمحمد بن علي اللخمي الشقوري الطبيب الأندلسي (ت. 1348م/749هـ). وهو مخطوط.

مقالة في الطب الشقوري، وهي رسالة منشورة.

«**تحقيق النبأ في أمر الوباء**"، لمحمد بن علي اللخمي الشقوري الطبيب الأندلسي. حقّقها محمد حسن في كتاب "ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف" صدرت عن بيت الحكمة بتونس، مع رسالتين أخريين الأولى "تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد" للطبيب ابن خاتمة (ت. 1369م/770هـ)، و»مقنعة السائل عن المرض الهائل» لابن الخطيب (ت. 1374م/776هـ).

"**المسنون في أحكام الطاعون**" للخطيب حسن بن علي (ت. 750هـ)، والد ابن قنفذ صاحب الوفيات، قال ابن قنفذ في كتابه المذكور أنّه بسبب فتنة هذا الوباء واختلاف طلبته في الفرار ممن مرض به ألف كتاباً فيه[9].

"**كتاب الطاعون**" لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صفوان المالقي المتوفى سنة 763هـ. ألفه صاحبه تلبية لمن سأله عن حقيقة وباء 749هـ.

«**تذكرة**» الخليل بن أيبك الصفدي (ت. 764هـ)، كتبها بمناسبة الطاعون الواقع عام 749هـ[10].

"**إصلاح النية في المسألة الطاعونية**" لأبي عبد الله محمد بن محمد بن جعفر بن مُشْتَمِل الأسلمي البلياني (ت. 764هـ). الخزانة الحسنية بالرباط.

«**تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد**»، لابن خاتمة الطبيب الأندلسي.

«**مصنّف في الطاعون**» لتاج الدين السبكي (ت. 771هـ) بالطاعون. ألّفه سنة 749هـ[11].

"**حل الحباء في الدعاء برفع الوباء**"[12] لولي الدين الملوّي (ت. 774هـ) [13].

"**الطب المسنون في دفع الطاعون**" لابن أبي حجلة أحمد بن يحي التلمساني (ت. 776هـ)[14].

"**دفع النقمة في الصلاة على نبي الرحمة**"، لابن أبي حجلة أحمد بن يحي التلمساني (ت. 776هـ)[15]. ركّز فيه على أثر الصلاة على النبي r في دفع الوباء.

«**نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**». للسان الدين بن الخطيب (ت. 1374م/776هـ)[16].

---

9 ابن قنفذ أبو العباس أحمد بن حسن (ت. 810هـ)، الوفيات. تحقيق عادل نويهض. بيروت: دار الآفاق الجديدة. الطبعة الرابعة 1403هـ/1983م. ص.356 .

10 ابن حجر العسقلاني، (ت. 258هـ)، بذل الماعون في فضل الطاعون. تحقيق احمد عصام عبد القادر الكاتب. الرياض: دار العاصمة. ص. 382.

11 الصفدي صلاح الدين خليل بن أيبك (ت. 764هـ)، الوافي بالوفيات. تحقيق أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى. بيروت: دار إحياء التراث. 1420هـ/2000م. 210/19.

12 ذكره ابن حجر، بذل الماعون، ص.319 .

13 محمد بن إبراهيم العثماني المَلَّوي الديباجي (ت. 477هـ)، وكتابه «حَلُّ الحِباء في الدعاء برفع الوباء" بيروت: دار الرياحين، سنة 2020م/1441هـ علق عليه شوكت بن رفقي شحالتوغ.

14 عادل نويهض، مُعجَمُ أعلام الجزائر - مِن صَدر الإسلام حَتّى العَصر الحَاضِر. بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر. الطبعة الثانية 1400هـ/1980م. ص. 365.

15 مخطوط يتكون من 88 ورقة. مكتبة الإسكوريال - إسبانيا - رقم 510.

16 حققت هذا الكتاب الدكتورة سعدية فايغة من المغرب الأقصى. الدار البيضاء: الدار الثقافية للنشر. 1989م

"مقنعة السائل عن المرض الهائل" للسان الدين بن الخطيب (ت. 776هـ) حققتها حياة قارة. كما حققها محمد حسن في كتاب «ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف 749هـ»، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة.

«وصية الناصح الأود في التحفظ من المرض الوافد إذا وفد» لأبي عمرو بن منظور (ت. 780هـ). وينحصر التحفظ منه في نظره فيما يقرأ ويذكر، وفي التدبير على مذهب الأطباء[17].

أدى تواتر الأوبئة والتأليف فيها والنظر في أعراضها ونتائجها إلى اكتساب الأطباء المسلمين خبرة في تشخيصها والتعامل معها. وقد لاحظنا في المدونة التي ورثناها على أطباء العصر المملوكي نضجا في تشخيص الأوبئة والاصطلاح على أسمائها. فإذا كان القدامى لم يستطيعوا التمييز بين الوباء والطاعون، ودرجوا على تسمية كل مرض عام طاعونا، مثل وباء 749هـ، ولو فعلوا العكس لكان أسلم، فإنّ لسان الدين ابن الخطيب لم يسمّه طاعونا، وإنما سمّاه المرض الهائل، ويبدو أنه كان مدركا للاضطراب في تسمية الأمراض، ولمّا كان طبيبا فإنّه لم يتورّط في هذا الاضطراب، واكتفى بوصف أعراض المرض الذي دمّر العالم في منتصف القرن الثامن الهجري[18].

ولما كانت الدراسات الطبية في تطور مستمر نتيجة تراكم التجارب البشرية ودقة البحوث العلمية المعاصرة، فقد حدّه علماء الطب الحديث بقولهم: الطاعون سببه بكتيريا تدعى يرسينيا بستس *Yersinia pestis* [19]. ثم العدوى بالنّفس الذي ينقل الإفرازات المتعفّنة للرئة.

2. جهود الأطباء المسلمين في مقاومة الوباء

سنحصر كلامنا في أعمال ثلاثة أطباء من القرن الثامن الهجري وهم ابن خاتمة والشقوري وابن الخطيب. وسنهتم بأمرين من مدوناتهم: تشخيصهم للوباء وبيان أسبابه من جهة، ومقاربتهم في التعامل معه من جهة ثانية.

2.1. أسباب الوباء: ذهب الأطباء المسلمون في العصر المملوكي مثل ابن خاتمة والشقوري وابن الخطيب إلى أن فساد الهواء يؤدي إلى ظهور الأمراض الوبائية، وهو نفس التفسير الذي ذهب إليه الأطباء المسلمون القدامى.

بيّن الشقوري (ت. 1348م/749هـ) أنّ سبب الوباء هو «**فساد مبثوث في الهواء المتنفس فيه،** فلذلك أمر الأطباء بإصلاح الهواء. وهو من آكد الأشياء، ولا يعرف الهواء والحاجة إليه الكثير من الناس، وإنما يعرفه من يعتريه أمر يضيّق نَفَسَه من تعب شديد أو مرض في آلات التنفس، ثم إن هذا الفساد يقع في الأبدان ويؤثر فيها تأثيرا عظيما»[20].

وأيّده ابن خاتمة (ت. 1369م/770هـ) معتبرا تغيّر الهواء هو السبب الرئيس لظهور الوباء[21]. ووافقهما ابن الخطيب (ت. 1374م/776هـ) وصنّف أسباب الوباء إلى صنفين، "له سبب أقصى: وهو الأمور الفلكية... التي تؤثّر في العالم، حسبما يزعمه أرباب صناعة النجوم ويأخذه الطبيب مسلّماً عنهم. وسبب أدنى: وهو فساد الهواء الخاص بمحل ظهوره ابتداء أو انتقالاً"[22].

---

17 حياة قارة، تقديم مقنعة السائل، ص. 27.

18 ابن الخطيب، مقنعة السائل، ص. 65.

19 الطبيب محمد البار، مقدمة كتاب ما رواه الواعون للسيوطي، ص. 8، 9.

20 الشقوري محمد بن علي اللخمي، نصيحة للمسلمين في الوباء. وهو مخطوط نقله «آفرنزسق خوئير سيمنيت" المالقي، مع جزء من مقنعة السائل لابن الخطيب، وجزء من تحصيل القاصد في تفصيل المرض الوافد لابن خاتمة. مخطوط في مجموع به ثلاث رسائل لأطباء أندلسيين متعلقة بالوباء وهم الشقوري وابن الخطيب وابن خاتمة. كتبها فرنزيسق خوير سمينيت. المكتبة الوطنية الإسبانية عدد 5067/8. تاريخ النسخ 26 نوفمبر 1851م. بمدينة الإسقوريال. ورقة 1 ظهر، و2 وجه.

21 ابن خاتمة، تحصيل غرض القاصد. ص. 146، 147، 148، 149، 150.

22 ابن الخطيب، مقنعة السائل، ص.65 .

ولئن نبّه ابن الخطيب على احترامه لمبدإ الاختصاص، والتسليم بما يقوله المختصّون في مجال ما، فإنّه عبّر عن رفض ربط الأمور الفلكية بالطب، أي أنّ نسبة الوباء إلى العامل الفلكي بمعنى التنجيم لا علاقة له بالطب، بل قال إنّ الكلام فيه من هذه الزاوية يعد تخليطا[23]. ولهذا نجده يربط ظهور الوباء بسبب مقبول في مجال الطب، وهو فساد الهواء، وفسّر المقصود بفساد الهواء تفسيرا موافقا لما قاله الشقوري "فساد الهواء الخاص نعني به هواء البيت الذي يصيبه، ثم هواء القرية مثلا عند استحكامه مع سلامة ما يجاوره تحرزا من فساد الهواء العام، لوجود السلامة في المجاور"[24].

إن الخلفية العلمية للأطباء قادتهم إلى أنّ الناقل الأساس للوباء الهواء، حيث تؤدي ملامسته للبدن ومخالطته له إلى نشأة المرض فيه[25]. ولما كان الأمر كذلك، فإنّه يجب "أن يتقدّم الإنسان فيصلح مزاج الهواء ما أمكنه"[26]. ويكون ذلك في نظر الشقوري وابن خاتمة وابن الخطيب بالتبخير بالمواد المعطّرة والمعقّمة، مثل الطرفاء والورد والقطران والخل ونحوها. كما يكون برشّ القطران أمام المنازل، والإكثار من شم الورد العطر والريحان. ويكون أيضا بجعل غذائه خبز الشعير معجونا بالماء ويسيرا من الخل[27].

وذهب ابن خلدون (ت. 1406م/808هـ) في اتجاه ما اختاره الأطباء وهو التسليم بدور الهواء في نشر الوباء، غير أنّه ربط ذلك بكثرة العمران وَوُفُورُهُ آخر الدولة[28]. ولذلك رأى أنّ التغلّب على هذا السبب يكون من الجنس نفسه، وهو تنظيم العمران بالشكل الذي يسمح بتخلّل الهواء، وذلك بترك مجالات بين المباني تسمح بمرور الهواء الصحيح، وخروج الهواء الفاسد[29]. وتأكّدت صحة دور الهواء في نشر الأوبئة بتقدّم العلوم الطبية في القرون الأخيرة[30].

2.2. التعامل مع الوباء: لما كان الوباء مرضا كسائر الأمراض وإن كان عاما، فإنّ له دواء في نظر الأطباء، أو يمكن أن يكون له دواء. ولذلك قالوا بضرورة الأخذ بالأسباب في التوقي من الأمراض قبل وقوعها، وبمداواتها بما يناسب إذا وقعت.

2.2.1. مستندات الأطباء: تأسّس هذا الاعتقاد عندهم على مجموعة من الأخبار الدينية، والحقائق الطبية والتجارب الإنسانية[31].

الأخبار الدينية: ويعنون بها أساسا الأحاديث النبوية التي يثبت بعضها وجود الدواء حقيقة واقعة، منها قول النبي r «تَدَاوَوْا عِبَادَ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ مَعَهُ شِفَاءً، إِلَّا الْهَرَمَ»[32]. ويدعو البعض الآخر منها إلى الوقاية من الأمراض الوبائية منها قول النبي r «غَطُّوا الْإِنَاءَ، وَأَوْكُوا السِّقَاءَ، فَإِنَّ فِي السَّنَةِ لَيْلَةً يَنْزِلُ فِيهَا وَبَاءٌ، لَا يَمُرُّ بِإِنَاءٍ لَيْسَ عَلَيْهِ غِطَاءٌ، أَوْ سِقَاءٍ لَيْسَ عَلَيْهِ وِكَاءٌ، إِلَّا نَزَلَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ الْوَبَاءِ»[33]. كما نجد النبي r في حياته العملية يأخذ بالأسباب، ويتوقّى من الأضرار، ويتحسّب للطوارئ، ويخطّط للأمور التي يُقدِم عليها، فلما خرج مهاجرا اختفى في الغار، واكترى دليلا

23 ابن الخطيب، مقنعة السائل، ص. 78.
24 ابن الخطيب، مقنعة السائل، ص. 78.
25 ابن سينا، القانون في الطب، ج. 3 ص. 164، 165.
26 ابن زهر، كتاب الأغذية، ص. 163.
27 الشقوري، نصيحة في الوباء، ورقة 2 ظهر، و3 وجه. ابن خاتمة أبو جعفر أحمد، تحصيل القاصد، الورقة 9 ظهر.
28 ابن خلدون، المقدمة، ص. 242.
29 ابن خلدون، المقدمة، ص. 242.
30 أحمد عصام عبد القادر، تقديم كتاب بذل الماعون لابن حجر، ص. 23، 24.
31 ابن خاتمة، تحصيل غرض القاصد. ص. 202 وما يليها.
32 ابن أبي شيبة (ت.235 هـ)، المصنف. تحقيق كمال يوسف الحوت. بيروت: دار التاج. الطبعة الأولى 1409هـ/1989م. «الطب»، 1 (عدد 23417)
33 مسلم، الجامع الصحيح، «الأشربة»، 12، (عدد 2014).

للطريق، ومع ذلك كلّه يقول لأبي بكر ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[34]. وكان يتوقّى بالدروع في الحرب، ويأمر أصحابه بذلك، بهدف حفظ النفس من القتل أو الضرر.

وبناء على ذلك فإن مسألة الاحتراز من مقاربة المرضى بالوباء ليست جائزة فقط، بل واجبة. ولهذا ردّ الغزالي على بعض الفقهاء الذين يقولون بعدم التداوي، لأنّ الطاعون لا دواء له، وبيّن أنّ ترك التداوي يتنافى مع التوكّل[35].

الحقائق الطبية: إنّ كون الشيء سببا لشيء آخر قانون مطّرد، ولذلك فإنّ لكل مرض سبب، ومعرفة السبب تُمكّن من التوقي من المرض، أو من علاجه إذا حصل.

التجارب الإنسانية: بدأت محاولات العلاج منذ أن ظهرت الأوبئة، وقد تراكمت التجارب الإنسانية في هذا المجال، وتسلّم كل أمة ما انتهت إليه إلى التي تأتي بعدها في إطار التداول الحضاري. وقد تسلّم المسلمون ما توصّل إليه اليونانون وغيرهم من تشخيص الأمراض وتحديد الدواء المناسب لها، غير أنّ الأطباء المسلمين لم يقفوا عند ذلك، فنقدوا ووجّهوا وعدّلوا وأضافوا، لأنّه لا يوجد في الدين ما يمنع من الاستفادة من ثمار عقول السابقين والحاضرين مسلمين كانوا أو غير مسلمين، بل ذلك مما أمر به وحثّ عليه[36].

2.2.2. مقاربات الأطباء المسلمين في التعاطي مع الوباء: نعرض فيما يلي مقاربات بعض الأطباء المسلمين زمن المماليك في التوقّي من الأوبئة وعلاجها إذا وقعت.

مقاربة الشقوري (ت. 1348م/749هـ): انطلق الشقوري من وضع أساس نظري لبحث المسألة، وهو التأكيد على التلازم بين الدين والعلم، وأن وظيفة الطبيب لا تخرج عن هذا الإطار، ودفع وَهْمَ مخالفة الطبّ لأمر الله، فكان خطابه سجاليا، استحضر من خلاله خصومه من الفقهاء الذين يرفضون نتائج البحوث الطبية، واستدل بما يؤيّد وجهة نظره فقال «إنّ كثيرا من الناس يفهم من كلامه أن الطب يخالف أمر الله، وهذا جهل من قائله»[37]. ثم قدم الشقوري تصوّرا متكاملا لمقاومة الوباء، يرجع إلى أمرين:

الأول: خصّص فصلا لإصلاح الهواء، ويتم ذلك حسب رأيه بالتبخير، ويختلف ذلك بحسب كدر الجو وبرده، وصفائه وحرّه[38].

الثاني: خصّص فصلا لإصلاح الأبدان بالغذاء والدواء. أما الغذاء ففيه مجتنب ومستعمل، أمّا المجتنب فكثرة الأكل، ومصابرة العطش، والتخليط في الأكل، بإدخال طعام على طعام، وأن يمعن في الأغذية الرديئة كالموالح والحلاوات والحوامض، فلا يأخذ منها إلا قدر الحاجة، عدا الحامض فيمكن استعماله في الوباء ما لم يوجد مانع منه. أمّا المستعمل فخبز القمح الطيّب النّقي المعتدل الملح والخمير، ويعجن بقليل خلّ مع الماء. ويستعان باللّحم دون الإكثار منه، وأفضله الطيور كالدجاج والحمام والحجل المخلّلات بالتفّاح وحامض الليمون. وأما الشرب فالماء الصّادق البرد، بأن يضاف إليه الثلج أو يبرد على الثلج، غير أنّه لا يناسب السعال والأبدان السقيمة الضعيفة.

أما الاستفراغ من المواد الزائدة في الأبدان والأخلاط الرديئة والفضول العفنة فيشترك فيها الأصحاء والمرضى، ولا يحل لمسلم عاقل أن يقدم على شيء منه في نفسه ولا في غيره إلا بمشاورة طبيب يثق به ويرتضيه لنفسه. وأما الحفظ

34 التوبة، 40/9.

35 الغزالي أبو حامد (ت. 505هـ)، إحياء علوم الدين. جدة: دار المنهاج. الطبعة الأولى 1432هـ/2011م، 326/8.

36 حمدان بن عثمان خواجة، إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز عن الوباء. طبعة حجرية، دار الطباعة، 1838م، ص. 12.

37 الشقوري، نصيحة في الوباء، ص. ورقة 2 وجه، و2 ظهر.

38 الشقوري، نصيحة في الوباء، ورقة 2 ظهر، و3 وجه.

ببعض الأدوية المأكولة في الأصحاء فاستعمال مربا الورد السكري، ومربا التفاح، وشراب الليمون. غير أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص حسب السن والوزن والقوة والضعف والمزاج، وهذا كلّه من اختصاص الطبيب. وأما المرضى فتدبيرهم مصروف إلى الأطباء، وبيّن الشقوري أنه أعدّ لذلك أدوية وألّف كتبا كما فعل غيره، وقصدهم هو النجاة والخلاص من هذا العارض بتوفيق الله وتسديده[39].

مقاربة ابن خاتمة (ت. 1369م/770هـ): انطلق ابن خاتمة من المعطيات العلمية المتاحة في زمنه، وما أفضى إليه بحثه في هذا الموضوع، وتجربته في معالجة المرضى بالوباء. وقد مكّنه ذلك من رسم خطة للتعامل مع الوباء تقوم على أمرين[40]:

أما **التحفظ والتحرز منه** فيكون بستة أشياء هي:

* **إصلاح الهواء:** ويتم ذلك باتخاذ البيوت الشمالية وتطييب الهواء بالرياحين وماء الورد ومسح الوجه والأطراف بذلك. وعدم التعرض إلى الشمس، وموقد النيران.

* **السكون:** التقليل من الحركة وتجنب كل ما يجهد البدن.

* **الطعام والشراب:** أفضل الطعام البرّ، وهو القمح على اختلاف أنواع دقيقه، والشعير. وأصلح اللّحوم الطيور الصغار بأنواعها مثل الدجاج والحجل، ولحوم صغار الحملان والجداء. وأصلح الفواكه الكمثري والرمان الحامض خاصة، والإجاص والعنب الأبيض. وأمّا الأشربة فأصلحها المياه العذبة الخفيفة الصافية، وعصائر الفواكه كالرمان والتفاح والسفرجل والليم الحامض. ويهجر النبيذ بأنواعه ولو كان مباحا فضلا عن الحرام.

* **النوم واليقظة:** أصلح النوم ما كان ليلا على المعتاد من غير زيادة ولا نقصان، ولا بأس بالنوم نهارا في الصيف.

* **الاستفراغ والاحتقان:** يكون الاستفراغ بتسهيل الطبع لما في الاحتقان من توفّر الأبخرة العفونيّة داخل البدن وتكدّر الأرواح والأخلاط وسقوط الشهوة. كما يكون الاستفراغ بالحجامة والفصد، ولئن تردّد ابن خاتمة فيه في البداية، فإنه أطلقه بعدما تبيّن له نفعه حتى أنّه أجاز للنّاس ممارسته من غير العودة إلى الطبيب.

* **الاهتمام بالجانب النفسي:** يكون بالتعرّض للمسرات وتجنب المكدرات، بالاستماع لما يبسط النفس ويشرح الصدر ويمدّ الأمل والمطالعة لكتب التاريخ والأشعار، وبيّن أنّ أَتْعَبَ النّاس في هذه النازلة هم أرباب العقول، وأروحهم البُلْهُ وأصحاب الفراغ[41].

أما **العلاج من الوباء إذا نزل** فيكون بأمرين هما:

* **علاجه أوّل استشعاره وقبل تحكمه:** لما كان العَرَضُ الأساس للوباء هو الحمّى، وهي حمّى تختلف عن سائر الحميات التي تعرض للبدن في سائر الأمراض غير الوبائية، لأنّها تستهدف القلب مدبّر البدن ومصرفه، وذلك بزيادة حرارته وزيادة كميّة الدم فيه، فإنّ ابن خاتمة لم يجد - حسب تجربته وما أفضت إليه من نتائج باهرة - علاجا أيسر وأقرب من الفصد لتفجير الدم حتى لا تنتشر الحرارة في الجسم كلّه، وتظهر الأعراض الهائلة.

---

39 الشقوري، نصيحة في الوباء، ورقة 5 وجه.

40 ابن خاتمة، تحصيل غرض القاصد، حقّق محمد حسن هذه الرسالة ضمن كتاب "ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف" صدر في تونس عن «المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون: الطبعة الأولى 2013م. ص. 128.

41 ابن خاتمة، تحصيل غرض القاصد. ص. 160 إلى 171.

ونبّه ابن خاتمة إلى ضرورة الأخذ ببعض الاحتياطات والتدخّلات الطبيّة قبل الإقدام على عملية الفصد، مما يعني أنه لا يمكن الإقدام عليها دون إذن الطبيب وإشرافه وتوجيهه. كما نبّه على أنّ من أسباب الشفاء بعد الفصد تجنّب مخالطة المرضى وملابستهم[42]. ويتبيّن من خلال هذا التوضيح تمييز ابن خاتمة بين الفصد قبل المرض وبعده.

* **علاجه بعد تمكّنه واستحكامه:** لئن كان العلاج بعد استحكام المرض قليل الجدوى، فإنّ الطبيب لا ييأس منه، لأنّ وظيفته العلاج، أما الشفاء فيبقى ممكنا لأنّه من الله، وقد يكتب السلامة للمريض، لذلك قدّم ابن خاتمة تجربته في معالجة الأمراض الوبائية، وتتمثل أساسا في:

أولا: الفصد وفق شروط وتقنيات دقيقة تعبر عن سعة اطلاعه على أجهزة البدن وصلتها ببعضها مما ساعده على تحديد موضع التدخل وفق علامات حدّدها تؤكد خبرته في المجال الطبي، مع انتباهه إلى حكمة الله، وحسن تدبيره، وعظيم قدرته في خلق الإنسان، وإحكام صنعه من خلال الوقوف على وظيفة كل عضو، وأهمية كونه على ذلك النحو بالذات، مما يثير العجب فيما وصل إليه الطب في ذلك الزمان. ولم يستبعد ابن خاتمة هلاك المريض إذا استحكم منه الداء لعجز الجسم عن المقاومة[43].

ثانيا: وصف الأدوية التي تتكوّن من أعشاب وثمار يتصرّف فيها وفق ترتيب ومقادير محدّدة، وتتناول وفق صيغ وأشكال مختلفة، مما يدلّ على علم وافر بخصائصها العلاجية، يؤكد ذلك العدول عن بعضها أو الاستمرار فيها في حالات محدّدة من تطور الوضع الصحي للمصاب[44].

ثالثا: الاهتمام بغذاء المريض بحسب ما يناسب حال العليل حتى يكون مقوّيا لمفعول الدواء في تحصيل المصلحة المقصودة، وينبغي تعهّد المريض بالغذاء ولو كان لا يرغب فيه حتى لا تنهار قوته تماما. ووصف جملة من الأغذية المناسبة لكل حال يكون عليه المريض[45].

وإذا بلغ المريض مرحلة نفث الدم لم ينفع معه علاج حسب تجربة ابن خاتمة وعلمه، لأنّه علامة على تهتّك الرئة، واستثنى من ذلك حالة نادرة حلّت لأحد الذين عالجهم حيث بادره الله بالشفاء مما أثار تعجّبه. وفسّره بأنّ النّفث للدم يمكن أن يكون من موضع آخر غير الرئة[46].

مقاربة ابن الخطيب (ت. 1374م/776هـ): وضع ابن الخطيب - انسجاما مع مبادئ العمل الطبّي - خطّة لمقاومة الوباء تتكوّن من مرحلتين:

الأولى: التحرز من الوباء قبل وقوعه. ويتم ذلك بأمرين: أولهما استفراغ المادة الزائدة مثل تنقيص الدم بالحجامة ونحوها، وإصلاح الأغذية، وتنقية الهواء، والعناية بالمجالس والمساكن. وثانيهما اجتناب مظان الفساد بعدم مخالطة المرضى والأموات، ولا ملامسة ثيابهم وأوانيهم وآلات عملهم، وسكنى ديارهم أو مجاورتها، وإذا كان ولا بدّ من ذلك فيجب الحذر وأخذ كل الاحتياطات اللازمة والتوقّي قدر الإمكان بتغيير الهواء وشم الرياحين، واختيار الأماكن المرتفعة نظرا لحركة الرياح فيها.

أما المرحلة **الثانية**، فهي العلاج من الوباء بعد تمكّنه حسب ما يقتضيه الحال، فإذا كانت حمّى ونفث الدم فبعلاج

42 ابن خاتمة، تحصيل غرض القاصد، ص. 160 إلى 177.
43 ابن خاتمة، تحصيل غرض القاصد، ص. 179 وما يليها.
44 ابن خاتمة، تحصيل غرض القاصد، ص. 185 وما يليها.
45 ابن خاتمة، تحصيل غرض القاصد، ص. 195 وما يليها.
46 ابن خاتمة، تحصيل غرض القاصد، ص. 197 وما يليها.

الرئة، وإذا كان خُراجا فبتسكينه وإنضاجه وتفجيره بالدواء أو بصناعة اليد، وهكذا يكون لكل عَرَضٍ ما يناسبه من التدخّل العلاجي[47].

ولم يقف طموح الطبيب ابن الخطيب عند هذا الحد، فعبّر عن طموحه لمعرفة طبيعة بعض الأعراض المستجدة للوباء، والتي لم يسبق وصفها، ولا تحديد علاجها، وهي المتمثلة في الإغماء وذهاب العقل، وظهور بثور ذات ألوان مختلفة، وبيّن أنّ الأمل يكمن في تقدّم المعرفة الإنسانية لكشف هذه الظواهر ووصف العلاج المناسب لها[48]. ويكشف هذا التصوّر عن الطموح والأمل اللّذين يحدوان الطبيب ابن الخطيب.

إنّ الطموح الذي ميّز ابن الخطيب، وتعمّقه في البحث الطبّي، جعلاه يتوصّل إلى نتائج غاية في الدقّة لم ينتبه إليها الطب إلّا حديثا. حيث نبّه في أكثر من مناسبة لاستعداد بعض الناس لتقبّل المرض دون بعض، وهو ما يفسر إصابة هذا وعدم إصابة ذاك رغم وجودهم في نفس المحل. وهو إشكال مازال يثير عددا من الناس إلى اليوم، ولكنه مفهوم بالنسبة إلى ابن الخطيب من زمن بعيد[49].

إن كون قبول المرض الوبائي استعداد لبعض الناس دون بعض قد يبعث اليأس في بعض النفوس، غير أنّ ذلك لم يحصل بالنسبة إلى ابن الخطيب فأراد بيان إمكان التغلّب على هذا الاستعداد، للحيلولة دون إصابة مَنْ لهم استعداد. وقد حصل ذلك في نظره نتيجة حِرْصِ الأطباء على حماية الناس ممّا يمكن أن يصيبهم من أمراض وبائية أو غيرها، فقال «حرص الأطباء عند تعرفهم بالحدس طبيعة هذا المرض، على الميل بالتدبير إلى طرف من مضادته يخرج عن سبيل الاستعداد، وهو جواب من رد العدوى والانتقال، بكون كثير من المباشرين للمرض سلموا من مضرّته، مع الملازمة والقرب من العدد الكثير منهم، وهلاك آخرين ممن لم يباشروا أو باشروا مباشرة يسيرة، إذ لم يعلم الجمهور أنّ علّة السّلامة والعطب بقدرة الله، إنما هي الاستعداد أو عدمه، وأنّ النّاس في الاقتراب من نار تلك السميّة، بمنزلة الفتل التي تقترب من النار المشتعلة في السّراج، وأنّ ما كان قريب عهد من الإيقاد والحرارة والدخانيّة، أسرع به تعلّق النار لحينه»[50].

بعد أن عرض ابن الخطيب مثال المستعدّ الوافر الاستعداد انتقل إلى بيان حالة الأقل استعدادا، وهو «ما كان جافّا غير قريب العهد بالنار قبل الإيقاد بعد انفعال في زمان أطول من الأول، وهو مثال الشارع في الاستعداد، وما كان من الفتل بليلاً مشربًا مائية، اشتعل بعد طول مصابرة، ونشيش معاصاة، وبعد زمان تجفّ فيه مائيته، فإمّا أن يتمّ اشتعاله بطول الزمان وعمل دؤوب، أو ربما غلب الفاعل لضعفه عنه، أو خمد الفاعل قبل مصابرته»[51]. ثم قال "والجهل بهذا المعنى غلّط الناس، وعدّد مصارعهم"[52].

ظلت ملاحظات ابن الخطيب واستنتاجاته مغمورة، لأنّ العقل المسلم الذي يرزح تحت وطأة التصورات الدينيّة الخاطئة، وضغط الأخبار المنقولة، جعلته لا يستطيع التقاط تلك المعاني الراقية والإشارات العلمية الدقيقة. فأخذت طريقها إلى الغرب في إطار الاستبدال الحضاري، حيث تم تلخيص ثمرات عقول الأطباء المسلمين ونقلها إلى أوروبا كما يؤكد ذلك المخطوط الذي بين أيدينا لـ «فرنزيسق خوير سمينيت»[53]، الذي نسخ رسائل الشقوري وابن الخطيب وابن خاتمة

47 ابن الخطيب، مقنعة السائل، ص. 66، 67.

48 ابن الخطيب، مقنعة السائل، ص. 67، 68.

49 ابن الخطيب، مقنعة السائل، ص. 70، 71.

50 ابن الخطيب، مقنعة السائل، ص. 71.

51 ابن الخطيب، مقنعة السائل، ص. 72.

52 ابن الخطيب، مقنعة السائل، ص. 72.

53 هو «أفرنزسق خوتير سيمنيت" المالقي. وهو من المستشرقين. تاريخ النسخ 26 نوفمبر 1185م. بمدينة الإسقوريال. هكذا دُوّن في خاتمة المخطوط.

ونقلها إلى الضفة الأخرى من المتوسط، وخرج بذلك المسلمون من التاريخ، ليبدأ تاريخ الإنسان الغربي بخلفيته اللاتينية بانيا على ما انتهى إليه الأطباء المسلمون.

3. التحديات التي واجهت الأطباء في مقاومتهم للوباء

واجه الأطباء المسلمون تحديين اثنين في تعاملهم مع الأمراض الوبائية: التحدي الأول من الوباء نفسه، والتحدي الثاني من المقاربة الفقهية للوباء.

3.1. التحدّي الأول من جهة الوباء نفسه: يظهر من خلال ما تميّزت به الأوبئة عن سائر الأمراض بآثارها التدميرية الواسعة، مما جعلها تشكل تحديًا للبشرية في مختلف مراحل التاريخ القديم والمعاصر. ولئن مثّل ذلك قاسما مشتركا لسائر الناس، فإنّ الأطباء أكثر إدراكا لهذا التحدي ووعيا به. وقد ظهر هذا التحدي في مجالات كثيرة نذكر منها:

3.1.1. المجال السياسي: يلاحظ المتأمل في التاريخ أنّ الأوبئة كانت قادرة على تدمير واسع يهدد كيان الدول، حتى أن بعض المؤرخين يعتقد أن أحد أسباب انهيار الدولة الأموية هو تلك الأمراض التي انتشرت فيها، وفتكت بأهلها. إذ حل بها وباء كل ثمان سنوات.

3.1.2. المجال الديموغرافي: تؤثّر الأوبئة بسبب قدرتها التدميرية على العائلات وعلى المجتمعات. فلم تكن الأوبئة سببا في نهاية دولهم فقط كما رأينا سابقا، بل وفي نهاية بعض عائلاتهم وأنسابها. كما تهدّد الأوبئة وجود مجتمعات كاملة مما يطمع الأعداء فيما تبقى منها[54]. وقد يمس الوباء أحيانا بعض الفئات الاجتماعية مثل الأشراف والفتيات والشباب[55]. ولا شك أن لذلك تفسيرا علميًا يمكن أن يصل إليه الأطباء والباحثون في المجال الطبي.

وكتب ابن الوردي عمر بن مظفر المعرّي المتوفى سنة 749هـ، مقامة وصف فيها ما فعله الوباء في مختلف الأماكن التي حل بها. ومما جاء فيها «ومن الأقدار، أنه يتتبع أهل الدار. فمتى بصق واحد منهم دما، تحقق كل منهم عدما. ثم يسكن الباصق الأجداث، بعد ليلتين أو ثلاث». ثم قال «كلما دخل إلى مكان، حلف ألا يخرج إلا بالسكان. ففتش عليهم بسراج، وهذا الذي جلب لأهل حلب الانزعاج»[56].

3.1.3. المجال الاقتصادي: اهتم المقريزي (ت. 1442م/845هـ) وهو الذي عاش زمن المماليك، في القرن الثامن بالتحديد وتولى الخطط الوظيفية فيه - بالأثر الاقتصادي للوباء، وبيّن أنّه يشل النشاطات الاقتصادية، حيث يمنع الزرع والحصاد، ويؤدي إلى إهمال المواشي والدواب، وضياع المحاصيل الفلاحية بسبب عدم وجود من يجمعها. ووصف ما أحدثه الوباء في الواقع فقال «وعم الـمَوَتَان أرض إفريقية بأسرها، جبالها وصحاريها ومدنها، وجافت من الموتى، وبقيت أموال العربان سائبة لا تجد من يرعاها»[57].

3.1.4. المجال العمراني: اهتم ابن خلدون بالأثر العمراني، وبين أنّ «ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف

ويبدو أنه فرنسسكو، لأنّ حرف القاف يعوض حرف الكاف عندهم. وهو من حقق كتاب "صفة مملكة غرناطة عن كتاب معيار الاختبار" تأليف أبي عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب السلماني. مجموع به ثلاث رسائل لأطباء أندلسيين متعلقة بالوباء وهم الشقوري وابن الخطيب وابن خاتمة. المكتبة الوطنية الإسبانية عدد 8-5067.

54 التمنارتي عبد الرحمن، الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة. تحقيق اليزيد الراضي. بيروت: دار الكتب العلمية. الطبعة الثانية 1428هـ/2007م، ص. 353.

55 التمنارتي، الفوائد الجمة، ص. 308.

56 السيوطي جلا الدين (ت. 911هـ)، ما رواه الواعون في أخبار الطاعون. تحقيق محمد علي البار. دمشق: دار القلم، ص. 201.

57 المقريزي أحمد بن علي الحسيني (ت. 845هـ)، السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق محمد عبد القادر عطا. بيروت: دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى 1418هـ/1997م. ج. 4 ص. 167.

هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيّف الأمم وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ظلالها، وفلّ من حدّها، وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها، وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل، وتبدّل السّاكن. وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب، لكن على نسبته ومقدار عمرانه وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة. والله وارث الأرض ومن عليها. وإذا تبدّلت الأحوال جملة فكأنما تبدّل الخلق من أصله، وتحوّل العالم بأسره، وكأنّه خلق جديد، ونشأة مستأنفة وعالم محدث»[58].

3.2. التحدي الثاني يأتي من المقاربة الفقهية للوباء: يقف الفقهاء والمحدثون على طرفي نقيض مع الأطباء في مسألتين: الأولى هي سبب الوباء، والثانية العدوى.

3.2.1. أسباب الأوبئة: نسب عامة الفقهاء والمحدّثين الطاعون إلى الجن اعتمادا على الخبر المضاف إلى النبي r وهو «وَخْزٌ مِنْ أَعْدَائِكُمْ مِنَ الْجِنِّ»[59]. وقد جعلهم ذلك بمعزل عما قاله أهل الطب، فاستهانوا بعلمهم ولم يعتبروا بما وصلوا إليه من نتائج. حتى قال السيوطي ت. 911هـ وهو ممن عاش في عهد المماليك "ولم أعوّل على ذكر شيء مما ذكر الأطباء فيما يستعمل أيام الطاعون، لأنه شيء لا فائدة فيه، وهم إنما بنؤا ما ذكروه على ما قرروه من أن الطاعون ناشئ عن فساد الهواء، وقد تبين فساد ما قالوه»[60]. وقال ابن حجر الهيثمي ت. 974هـ -وهو ممن نشأ وترعرع في العهد المملوكي أيضا- إنّ «القول بأنّ الطاعون ناشئ عن فساد الهواء كلام مزيّف"[61].

ولئن سلّم عدد من الفقهاء ومنهم ابن القيم ت. 751هـ بأثر الهواء، فإنهم لم يجعلوه مباشرا ولا تاما ولا فاعلا في نشأة الوباء حسب تعبير ابن القيم[62]، وهو من أهل القرن الثامن، ومن معاصري الأطباء الثلاثة الذي اخترناهم لهذه الدراسة، لأنّ السبب الأصيل في رأيه هو الأرواح الشريرة، و»ليس عند الأطباء ما يدفعها، كما ليس عندهم ما يدل عليها، والرسل تخبر بالأمور الغائبة»[63].

ومما تمسّك به الفقهاء في هذه المسألة قولهم لو كان الهواء سببا للوباء لمات الجميع، لأنّه يحيط بهم من كل جهة، ولا حياة لهم إلا به. والحال أنه يقع في البلد فيصاب به البعض ولا يصاب البعض الآخر، بل يصاب بعض أهل المنزل الواحد ولا يصاب البعض الأخر. ثم لو كان سببه فساد الهواء لدام في الأرض، ولكنه يأتي على كيفية لا يمكن قياسها ولا التنبؤ بها، فهو يذهب ويجيء من غير انتظام، فربما جاء سنة على سنة، وربما أبطأ سنين[64].

وأمام هذا التحدي - الذي لم يمس موضوع الاختلاف فقط، وإنما مس أشخاص الأطباء ومهنة الطب نفسها، حيث أصبح ما يتوصل إليه الأطباء محل ريبة، وأصبحت عقيدة الأطباء محل شك - اجتهد الشقوري وابن خاتمة وابن الخطيب

58 ابن خلدون، المقدمة. ص. 26.

59 أحمد بن حنبل (ت. 241هـ)، المسند. تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون. مؤسسة الرسالة. الطبعة الأولى، 1421هـ/2001م. ج. 32 ص. 480.

60 السيوطي، ما رواه الواعون، ص. 172. أنظر أيضا: مرعي بن يوسف المقدسي الحنبلي (ت. 1033هـ)، ما يفعله الأطباء والداعون بدفع شر الطاعون. تقديم وتعليق خالد بن العربي مدرك. بيروت: دار البشائر. الطبعة الأولى 1421هـ/2000م، ص. 37.

61 ابن حجر الهيثمي (ت. 974هـ)، الفتاوى الكبرى الفقهية. مصر: ملتزم الطبع والنشر عبد الحميد حنفي. ج. 4 ص. 21.

62 ابن قيم الجوزية (ت. 751هـ)، الطب النبوي. اعتنى به عبد الغني عبد الخالق، وعادل الأزهري، ومحمود فرج العقدة. بيروت: دار الفكر. ص. 30، 31.

63 ابن القيم، الطب النبوي، ص. 30.

64 ابن حجر، بذل الماعون، ص. 105. الزرقاني محمد المصري الأزهري، شرح على موطأ الإمام مالك. المطبعة الخيرية. دون طبعة ولا تاريخ، 77/4.

في التفاعل مع هذا التحدي ومحاولة رفعه وفاء لخلفيتهم الطبية التي تقتضي البحث فيما هو حسي قابل للملاحظة والتجربة، فاقتصروا على الأسباب الأرضية والسماوية وجميعها له أصل مادي قابل للتحقّق منه.

أما الخبر الذي ينسب الوباء إلى الجن فهو ضعيف واه لا يعتد به ولا يستند إليه، ففي سنده اختلاف، ورواته فيهم المجهول والضعيف جدا[65]. ويتبيّن من خلال التعليق على هذا الخبر أنّ المقاربة الفقهية قامت على غير أساس، أوّلا لأنّ هذه الأمور الغائبة عن الحس مما لا يمكن التحقّق منه، وهي غير داخلة في مجال العلم. وثانيا لأنّ البحث في الأمراض وأسبابها ليس من شأن الرسل. وثالثا لا يمكن التعلّل بكونها أمور غائبة فنصدّقها، لاسيما بخبر ضعيف مثل هذا. ورابعا كيف يقبل ابن القيم تأثير الأفلاك الذي يقول به المنجّمون رغم أنّ ما يفعلونه يدخل في علم الغيب الذي استأثر الله بعمله؟

أمّا قولهم لو كان سبب الوباء هو فساد الهواء لمات الجميع ونحن نلاحظ أنّ المرض يصيب بعض أفراد العائلة ولا يصيب البعض الآخر، فلعلّ أوضح رد على هذه التساؤلات وأكثره دلالة واختصارا نجده عند الشقوري (ت. 1348م/749هـ) الذي فسّر سبب ظهور الوباء بأنه «**الهواء المتنفس فيه**»[66]، أي الهواء المتنفس فيه في البيوت وسائر الفضاءات المغلقة، وليس مطلق الهواء.

وممّا يلاحظ في هذا المقام أنّ عامة الناس لم يلتفتوا إلى رأي الفقهاء الرافضين لاعتبار فساد الهواء سببا للوباء، كما قال السخاوي (ت. 1497م/902هـ) وهو من أعلام مؤرخي عصر المماليك - ولذلك تراهم يسعون في دفعه بتحسين صفة الهواء عبر التبخير، تعلّقا منهم بالحياة وبأي سبب يساعد في حفظها، مثل تجنب الأماكن المكتظة والتحوّل إلى المناطق المفتوحة[67].

3.2.2. مسألة العدوى: ذهب جمهور الفقهاء والمحدثين إلى نفي العدوى، فالأمراض لا تنتقل من المريض إلى الصحيح، وإنما يصيب الله بها من يشاء من عباده. استندوا إلى خبر «لاَ عَدْوَى وَلاَ صَفَرَ وَلاَ هَامَةَ» فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا بَالُ إِبِلِي، تَكُونُ فِي الرَّمْلِ كَأَنَّهَا الظِّبَاءُ، فَيَأْتِي البَعِيرُ الأَجْرَبُ فَيَدْخُلُ بَيْنَهَا فَيُجْرِبُهَا؟ فَقَالَ: «فَمَنْ أَعْدَى الأَوَّلَ؟»[68]. ويقوم نفي العدوى في نظرهم على إثبات انفراد المولى عز وجل بالفعل، وأن لا تأثير لشيء مما يتوهم العرب أنه مؤثر، لأنّ في نسبة الأفعال والتأثيرات للأسباب هو حدّ من الإرادة الإلهية، وهذا يتنافى مع الدين، ويشوّش عقيدة العوام

وبنوا على القول بنفي العدوى، إنكار التلفّظ بها، لأنّها مما يتنافى مع عقيدة التوحيد. ثم إنّ الواقع - في نظرهم - يؤكّد نفي العدوى، لأنّ الوباء ينتشر في العائلات، ومع ذلك لا يصاب بعض أفرادها رغم شدة المخالطة. يقول ابن حجر وهو من فقهاء القرن الثامن الهجري ردًّا على المثبتين للعدوى وخاصة السبكي من معاصريه الذي قبل شهادة الأطباء في إثبات العدوى «لا تقبل شهادة من يشهد ذلك، لأنّ الحسَّ يكذّبه، فهذه الطواعين قد تكرّر وجودها في الديار المصرية والشامية، وقلّ أن يخلو بيت منها، ويوجد من أصيب به من يقوم عليه من أهله وخاصته، ومخالطتهم له أشد من مخالطة الأجانب قطعًا، والكثير منهم بل الأكثر سالم من ذلك. فمن شهد بأن ذلك سبب في أذى المخالط فهو مكابر»[69].

وبناء على تلك الأخبار وعلى تأويلهم لها، وما يترتب على ذلك من تصورات، فقد صنّف الفقهاء الأطباء إلى صنفين متشرّعة وغير متشرّعة[70]، فمن وافقهم القول كان من المتشرّعة ونال رضاهم، ومن خالفهم كان من غير المتشرّعة ونال

65 انظر تعليق المحقّق على مسند أحمد، المسند، هامش 3 ج. 32 ص. 293 وما يليها. والمصدر نفسه، هامش 2، 32/480.

66 الشقوري، نصيحة في الوباء، ص. ورقة 1 ظهر، و2 وجه.

67 السخاوي محمد بن عبد الرحمان (ت. 902هـ)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت: دار الجيل. 1412هـ/1992م، ج. 3 ص. 156، 157.

68 البخاري محمد بن إسماعيل (ت. 256هـ)، الجامع الصحيح، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر. دار طوق النجاة. الطبعة الأولى 1422هـ. «طب»، 25. (عدد 5717).

69 ابن حجر، بذل الماعون، ص. 342.

70 الرصّاع محمد، الأجوبة التونسية عن الأسئلة الغرناطية. تحقيق محمد حسن. بيروت: دار المدار الإسلامي. 2007م، ص. 108.

سخطهم ولم يكن محلّ ثقتهم.

ويمثّل موقف الفقهاء من مسألة العدوى تحديا شديدا للأطباء، لاسيما وأن الفقهاء يستندون إلى الأخبار المنسوبة إلى النبي r، وإلى تأويلات متصلة بالتوحيد وصحة الاعتقاد، إضافة إلى اعتماد مؤيّدات من الواقع مثل عدم حصول العدوى لبعض الناس رغم حصول الاختلاط بالمرضى.

* أمّا من جهة الخبر الذي استندوا إليه وهو "لا عدوى" فلئن رجّحه البعض، فقد ردّه البعض الآخر "لأَنَّ أبا هُريرة رَجَعَ عنهُ، إمّا لِشَكِّهِ فِيهِ، وإمّا لِثُبُوتِ عكسه عِنده، قالُوا: والأخبار الدَّالَّة عَلَى الاجتِناب أكثر مخارج، وأكثر طُرُقًا، فالمصِير إليها أولى"[71].

* أما كون القول بالعدوى ينافي عقيدة التوحيد لأنّ فيه إثبات فاعلية الأسباب، فيعبّر عن خلل في تصور نظام الكون وعلاقة الله به. يوهم تصورهم بانفصال الله عن الكون، كأن الله لم يخلق هذا النظام، أو هو فاعل من غير إرادته، والحال أنّ قانون السببية يمثّل أحد مظاهر خلق الله، وتعبيرا عن إرادته وقدرته سبحانه وتعالى، ومن شأن ذلك أن يجعل أخذنا بالأسباب في مختلف أوجه حياتنا عملا بإرادة الله وانسجاما معها وتحرّكا في إطار نواميسها. ولذلك ليس في الأخذ بها مسّا بعقيدة التوحيد، بل من كمال التوحيد الاعتقاد أنّنا نتصرف في إطار النظام الذي أقامه الله وفق قوانين محددة.

وتتضح المسألة عندما نطبقها على الموضوع الذي نحن بصدد بحثه وهو الوباء. فنلاحظ أنّ خلق الكون اكتمل كما يعبر عن ذلك القرآن في قوله تعالى ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[72]. فقد أوجد الله كل المكوّنات، فلا يظهر شيء جديد من مكوناته إلا وفق النظام الذي أقامه وهو قانون السببية. فليس هناك شيء يحدث إلا وأسبابه في الطبيعة، ويكفي أن يلتقي السبب بمسببه لتظهر النتائج المناسبة. قانون ثابت وسنة مطردة ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[73]. وإذا تخلّفت النتيجة، فإما لغياب شرط، أو وجود مانع، وإن لم يكن ذلك فهي معجزة. فكل الأمراض التي وجدت، والأمراض الموجودة الآن، والتي يمكن أن توجد في المستقبل، أسبابها موجودة في الكون منذ خلقه الله، يكفي أن تتوفر شروطها، وتنتفي موانعها، لتظهر وتصيب الإنسان. وإذا تمكّن العقل البشري من الإحاطة بهذه الأمور، استطاع الحيلولة دون وقوعها، أو إيجاد الدواء لها والتخفيف من حدتها وآلامها إذا وقعت. غير أنّ تلك الإحاطة تبقى دائما نسبية، لأنّ إدراكنا للأسباب والموانع والشروط والأحداث التي تنتج عنها ستظل محدودة، ولذلك فإن سيطرتنا عليها ستكون على قدر تقدم المعرفة، التي ستظل طموحا بعيد المنال، ويقترب منه البشر على قدر جدهم واجتهادهم وما يفتح الله به عليهم، مصداقا لقوله تعالى ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[74].

* وإذا كان الفقهاء ينطلقون من خلفية عقائدية تنفي نسبة شيء إلى غير الله، وتؤكد أنّه الفاعل ولا أحد سواه يفعل، وأن نسبة شيء لغيره هو مظهر للشرك، بم يفسّرون نسبة الوباء إلى الجن؟ أليس هذا سببا؟ أم أنّ الخطر على عقيدة التوحيد لا يكون من الأسباب الوهمية أو غير المرئية؟ ألم يخلق الله الأسباب كلها وهيأها على نحو يجعلها سننا مطردة وقوانين مستمرة؟ لِمَ ينظرون إلى قانون السببية نظرة ريبة وحذر؟

---

71 الإثيوبي الولّوي محمد ابن الشيخ، ذخيرة العقبى في شرح المجتبى (سنن النسائي). مكة المكرمة: دار آل بروم للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى 1424هـ/2003م. ج. 32 ص. 270.

72 الملك، 3/67، 4.

73 الأحزاب، 62/33.

74 الإسراء، 85/17.

وانطلاقا من هذه المعطيات فإنّ هذا التصور لا يناقض فقط العقل وهو مناط التكليف، ولا يناقض فقط نظام الكون وهو حقيقة ظاهرة، ولكنّه يعارض الإرادة الإلهية التي تتجسّد في نظام الكون، لأنّ الإطلاق في الإرادة الإلهية يتسم بالحكمة والقصدية والعدل والرحمة، لا العفوية والفوضى.

ولا يخفى على أبناء عصرنا ممن أتاح لهم زمانهم أفقا معرفيا مختلفا أن هذه المقاربة الفقهية للوباء لم تستطع إدراك العلاقة بين الإيمان بالله وما خلقه الله في الكون من أنظمة ومنها نظام السببية، ولذلك لم تنته إلى طائل. يؤكد ذلك أننا نجد أصحابها في كثير من الأحيان يختمون قراءتهم بما ينقضها، مما جعل بعض النقاد مثل حمدان خواجه بعد نقله لرأي ابن حجر يتساءل عن جدوى كل ما كتب، وعن سبب نفي العدوى إذا كانت خاتمة كلامه إثباتا لها[75]. وكذلك الحال بالنسبة إلى أبي الوليد الباجي فنجده ينفي العدوى، ثم نجده يقول بضرورة إلزام المرضى بعدم مخالطة الأصحاء، وإن خالفوا يعاقبون بالسجن[76]. فلماذا يعاقبون إن كانت العدوى غير موجودة؟ أليس هذا تسليما بوجود العدوى؟ ثم لو لم تكن هناك عدوى لماذا يمنع فقهاء المالكية المجذوم من دخول المسجد؟ ولماذا يسمحون لزوجته بمفارقته؟[77]. وقد أثبت الطب الحديث أن الجذام مرض معدي، وأنّ البكيريا المتسببة فيه صعب علاجها.

كما رد الأطباء على الشبهة التي أثارها الفقهاء والمتمثلة في نفي العدوى اعتمادا على عدم اطرادها. وبيان ذلك أن حصول المرض لا يكون بالسبب المتسبب فيه وإنما باستعداد البدن وانفعاله، وهو أمر مختلف من شخص إلى آخر بحسب الاستعداد لتقبله. فقد يختلط شخصان بمريض فيمرض أحدهما ولا يمرض الآخر، لأنّ بدنه لم ينفعل به بسبب عدم تهيئه وقوة مناعته[78].

غير أن الوعي الجمعي واللحظة الحضارية كانت منبئة بالأفول، فلم يلتقط أولو الأمر هذه الإشارات العميقة، وزادها الفقهاء تعقيدا بتأويلاتهم البعيدة، فانتشرت الخرافات والأوهام والطرق البدائية في التعامل مع الأوبئة. فنجد مثلا صاحب كتاب «**الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة**" يقول "تأخذ ألف حبة قمح أو غيره، تعدها بوضوء وأنت تستقبل القبلة، وتقرأ على كل حبة: [البسيط]

فإن فضل رسول الله ليس له *** حدّ فيعرب عنه ناطق بفم[79].

وتصُرّ الجميع في خرقة بيضاء نقية وتدفنها في قعر الزرع تجد البركة فيه بفضل الله»[80].

وقال **ابن أبي حجلة (ت. 1375م/776هـ)** -وهو من أهل القرن الثامن الهجري- إنه لم ير ما يدفع خَطْبَ الوباء المهول مثل الصلاة على الرسول r، وبيّن أن سبب تأليف كتابه هذا هو توجيه قول بعض الصالحين أنّ كثرة الصلاة على الرسول r تدفع الطاعون، وهو بمثابة الرد على من رأى في التداوي بالصلاة على الرسول r بدعة مرفوضة، لأنّه لم يرد في ذلك نص صريح ولا حديث صحيح، فأجابه بأنّه وإن كان الأمر كذلك، فإنّ في الاستنباط وجوه حسان باهرة الرّهان، وهي مما هداه الله إليها ولم ير من نبّه إليها، حسب تعبيره[81].

---

75 حمدان خواجه، إتحاف المنصفين. ص. 27.

76 الباجي أبو الوليد الأندلسي (ت. 474هـ)، المنتقى شرح الموطإ. مصر: مطبعة السعادة. الطبعة الأولى 1332هـ. 264/7، 266.

77 الباجي، المنتقى. 265/7.

78 ابن خاتمة، تحصيل غرض القاصد، الورقة 9 ظهر.

79 البيت 46 من البردة «الكواكب الدرية في مدح خير البرية» للبوصيري 696هـ/1296م، انظر: الباجوري إبراهيم 1277هـ/1857م، حاشية على البردة للبوصيري. القاهرة: مكتبة الآداب. ص. 50.

80 التمنارتي، الفوائد الجمة، ص. 394.

81 ابن أبي حجلة أحمد بن يحي، دفع النقمة في الصلاة على نبي الرحمة. مكتبة الإسكوريال، إسبانيا، عدد 510. الورقة 4 وجه و4 ظهر.

أن يكون المسلم مطالبا بالاستعانة بالدعاء في سائر شؤونه، فهذا أمر لازم، أما أن يكتفي به، ولا يأخذ بالأسباب، ويستحضر الأمر بالدعاء، ولا يستحضر الأمر بالسعي، فذلك مثال المسلم - المنهزم حضاريا، والمفقّر علميّا، والمسحوق اجتماعيا وسياسيا - ولذلك تراه يقاوم الوباء بدفن حبات قمح على صفة معيّنة. ولم يتساءل عن العلاقة السببية بين ما يفعله ووقوع المرض أو مداواته.

الخاتمة

بذل الأطباء المسلمون زمن المماليك جهودا مهمة في تشخيص الأمراض الوبائية، ووضع تصورات لمواجهتها، مما أثمر مدوّنة طبية ذات بال، تضمنتها كتبهم التي مازال عدد منها مخطوطا.

وبقطع النظر عن النتائج التي حقّقوها فإنّهم سلكوا الطريق الصحيح منذ البداية، واتجهوا إلى الحس والتجربة، واستأنسوا بثمار عقول من سبقوهم، ونقدوها، وأضافوا إليها، ولكن ليس بالإمكان أفضل مما كان، فذاك ما سمحت به ظروف عصرهم، وذاك ما أداه إليه اجتهادهم. وهم معذورون فيما توصّلوا إليه.

وقد مثلت جهودهم سبقا علميا مهما، تُفَسَّرُ به الظواهر الوبائية، ودليلا لمن جاء بعدهم من الأطباء، فأصبحت تراثا إنسانيا انتشر في الشرق والغرب، ومازالت بعض نتائج بحثهم محافظة على جدتها وتأثيرها، مثل فكرة الاستعداد التي توضح سبب إصابة شخص دون آخر بالوباء رغم وجودهما في فضاء وبائي واحد. ولعلّ هذا يؤكد العلاقة المتينة بين الدين والعلم، والطب على وجه الخصوص رغم ما يظهر من تنافي في ذهن بعض الناس، وقد تولى المحقّقون من العلماء تأكيد هذه الحقيقة تأكيدا قاطعا

المصادر والمراجع

ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان، تحقيق عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي. دار المعارف - القاهرة.

ابن أبي حجلة أحمد بن يحي التلمساني ت. 776هـ، دفع النقمة في الصلاة على نبي الرحمة. مخطوط يتكون من 88 ورقة. مكتبة الإسكوريال - إسبانيا - رقم 510.

ابن أبي شيبة أبو بكر الكوفي ت. 235هـ، المصنف في الأحاديث والآثار. تحقيق كمال يوسف الحوت. دار التاج، بيروت. الطبعة الأولى 1409هـ/1989م.

ابن الخطيب لسان الدين ت. 776هـ 1374م، مقنعة السائل عن المرض الهائل. تحقيق حياة قارة. دار الأمان - الرباط. الطبعة الأولى 1436هـ/2015م

ابن الوردي عمر بن مظفر 749هـ، تاريخ ابن الوردي، المطبعة الحيدرية - النجف. الطبعة الثانية 1389هـ 1969م.

ابن تغري بردي يوسف الحنفي ت. 874هـ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب - مصر.

ابن حجر العسقلاني ت. 852هـ، بذل الماعون في فضل الطاعون. تحقيق احمد عصام عبد القادر الكاتب. دار العاصمة - الرياض.

ابن حجر الهيثمي ت. 974هـ الفتاوى الكبرى الفقهية. ملتزم الطبع والنشر عبد الحميد حنفي - مصر.

ابن خاتمة (1369-1333)، تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد، حقّق محمد حسن هذه الرسالة ضمن كتاب «ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف» صدر عن «المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة) الطبعة الأولى 2013م.

ابن خاتمة أبو جعفر أحمد، تحصيل القاصد في تفصيل المرض الوافد. مخطوط في مجموع به ثلاث رسائل لأطباء أندلسيين متعلقة بالوباء وهم الشقوري وابن الخطيب وابن خاتمة. كتبها فرنزيسق خوير سمينيت، بتاريخ 1851م بمدينة الإسقوريال. المكتبة الوطنية الإسبانية عدد 8/5067.

ابن خلدون، المقدمة، تحقيق محمد محمد تامر. مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة. الطبعة الأولى 1426هـ/2005م.

ابن زُهر عبد الملك أبو مروان 557هـ/1162م، كتاب الأغذية. منشور ضمن كتاب «الأغذية والأدوية عند مؤلفي الغرب الإسلامي» لمحمد العربي الخطابي. دار الغرب الإسلامي 1990.

ابن سينا أبو علي الحسين بن علي ت. 428هـ، القانون في الطب. تحقيق محمد أمين الضناوي. دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة الأولى 1420هـ/1999م.

ابن عساكر علي بن الحسن ت. 571هـ، تاريخ دمشق. تحقيق عمرو بن غرامة العمروي. دار الفكر - بيروت، 1416هـ/1996م.

ابن قنفذ أبو العباس أحمد بن حسن ت. 810هـ الوفيات (معجم زمني للصحابة وأعلام المحدثين والفقهاء والمؤلفين). تحقيق عادل نويهض. دار الآفاق الجديدة – بيروت. الطبعة الرابعة 1403هـ/1983م.

ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر 751هـ الطب النبوي. اعتنى به عبد الغني عبد الخالق، وعادل الأزهري، ومحمود فرج العقدة. دار الفكر - بيروت.

الإثيوبي الولّوي محمد ابن الشيخ، ذخيرة العقبى في شرح المجتبى (سنن النسائي). دار آل بروم للنشر والتوزيع، مكة المكرمة. الطبعة الأولى 1424هـ/2003م.

أحمد بن حنبل الشيباني ت241هـ المسند. تحقيق شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون. مؤسسة الرسالة. الطبعة الأولى، 1421 هـ/2001 م.

أحمد عصام عبد القادر، تقديم كتاب بذل الماعون لابن حجر. انظر ابن حجر.

آفرنزسق خوئير سيمنيت المالقي. مجموع به ثلاث رسائل لأطباء أندلسيين متعلقة بالوباء وهم الشقوري وابن الخطيب وابن خاتمة. كتبها بتاريخ 1851م بمدينة الإسقوريال. المكتبة الوطنية الإسبانية عدد 8/5067.

الباجوري إبراهيم 1277هـ/1857م، حاشية على البردة للبوصيري. مكتبة الآداب - القاهرة.

الباجي أبو الوليد سليمان بن خلف التجيبي القرطبي الأندلسي ت. 474هـ، المنتقى شرح الموطإ. مطبعة السعادة - مصر. الطبعة الأولى 1332هـ

البخاري محمد بن إسماعيل ت. 256هـ الجامع الصحيح. تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر. دار طوق النجاة. الطبعة الأولى 1422هـ.

التمنارتي عبد الرحمن، الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة. تحقيق اليزيد الراضي. دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة الثانية 1428هـ/2007م.

حمدان بن عثمان خواجة، إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز عن الوباء. طبعة حجرية، دار الطباعة، 1838م.

حياة قارة، تقديم مقنعة السائل. انظر ابن الخطيب.

الرصّاع محمد، الأجوبة التونسية عن الأسئلة الغرناطية. تحقيق محمد حسن. دار المدار الإسلامي - بيروت. 2007م.

الزرقاني محمد المصري الأزهري، شرح على موطأ الإمام مالك. المطبعة الخيرية. دون طبعة ولا تاريخ.

السخاوي محمد بن عبد الرحمان ت. 902هـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل- بيروت. 1412هـ/1992م.

السيوطي جلا الدين ت. 911هـ ما رواه الواعون في أخبار الطاعون. تحقيق محمد علي البار. دار القلم - دمشق.

الشقوري محمد بن علي اللخمي، نصيحة للمسلمين في الوباء. وهو مخطوط نقله «آفرنزسق خوئير سيمنيت» المالقي، مع جزء من مقنعة السائل لابن الخطيب، وجزء من تحصيل القاصد في تفصيل المرض الوافد لابن خاتمة. تاريخ النسخ 26 نوفمبر 1851م. بمدينة الإسقوريال.

الصفدي صلاح الدين خليل بن أيبك ت. 764هـ، الوافي بالوفيات. تحقيق أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى. دار إحياء التراث – بيروت. 1420هـ 2000م.

الطبيب محمد البار، مقدمة كتاب ما رواه الواعون للسيوطي. أنظر السيوطي.

عادل نويهض، مُعجَمُ أعلام الجزائر - مِن صَدر الإسلام حَتّى العَصر الحَاضِر. مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر - بيروت. الطبعة الثانية 1400هـ/1980م.

الغزالي أبو حامد 505هـ، إحياء علوم الدين. دار المنهاج - جدة. الطبعة الأولى 1432هـ/2011م.

محمد حسن، ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف. وهي رسالة لابن الخطيب (1313/1374)، مقنعة السائل عن المرض الهائل. ورسالة «تحقيق النبأ في أمر الوباء» لمحمد بن علي اللخمي الشقوري (1326/1374)، ورسالة «تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد» للطبيب ابن خاتمة (1333/1369). صدر عن «المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة) الطبعة الأولى 2013م.

مرعي بن يوسف المقدسي الحنبلي ت. 1033 هـ، ما يفعله الأطباء والداعون بدفع شر الطاعون. تقديم وتعليق خالد بن العربي مدرك. دار البشائر - بيروت. الطبعة الأولى 1421هـ/2000م.

مسلم بن الحجاج ت. 261هـ الجامع الصحيح. دار المعرفة - بيروت.

المقري التلمساني شهاب الدين أحمد بن محمد ت1041هـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. تحقيق إحسان عباس. دار صادر - بيروت. 1997م.

المقريزي أحمد بن علي الحسيني ت. 845هـ السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة الأولى 1418هـ/1997م.

الملّوي الديباجي محمد بن إبراهيم العثماني ت. 774 هـ، حَلُّ الخِباء في الدعاء برفع الوباء. بيروت: دار الرياحين، سنة 2020م/1441هـ علق عليه شوكت بن رفقي شحالتوغ.